أسبانيا : كلمة لها رنين خاص على السمع العربي خاصة والإسلامي عامة . فهي ـ بشكل ما ـ الأندلس والتاريخ والحضارة . ولعل ذلك ليس إحساسنا نحن العرب والمسلمين فحسب لكنه أيضًا إحساس الأسبان أنفسهم . الذي يتبلور يومًا بعد يوم . فإنهم ـ أي الأسبان ـ يحملون في تكوينهم . وفي لا وعيهم . بذورًا من هذا الماضي . ومن هذا التاريخ .

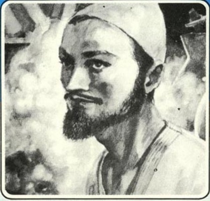

عرض

د. محمد عبدالحميد عيسى

المقتبس

لابن حيان الأندلسي

وقد يكون العالم كله مهتمًا بدرجات متفاوتة بالحضارة العربية وثقافتها ، لكن أسبانيا ـ على وجه الخصوص ـ أصبحت مركزًا أساسيًا لنشر هذه الحضارة في أوروبا وأمريكا اللاتينية ، وقد لا يعلم القارىء العربي بأنه في أسبانيا حاليًا مجموعة من مراكز الدراسات العربية والإسلامية ، تلعب دورًا كبيرًا في إحياء الحركة الثقافية ، وتمتد هذه المراكز مع مراكز العمران الرئيسية في أسبانيا ، فمنها ما هو قائم في أقصى الشمال في إقليم قطالونيا ومنها ما هو في أقصى الجنوب في إقليم غرناطة ، وتستحق منا ـ نحن العرب ـ دراسة خاصة على الأقل لنطلع القاريء عامة والمثقف خاصة بهذا النشاط الكبير وهذا الجهد الرائع ، وحيث أن هذه الدراسة ليست موضوعي الحالي فلا بأس من الإشارة إليها إسميًا حتى يتاح لي تقديم تعريف وافٍ بها إلى القاريء العربي.

يتسنم قمة هذه المؤسسات المعهد الأسباني العربي للثقافة ، وهو مؤسسة تمد نشاطها إلى مجالات واسعة وعميقة ، وتلعب دورًا مؤثرًا في مجال تشييد العلاقات الثقافية بين أسبانيا والعالم العربي ويضم قسمًا للنشر والمطبوعات ، يتولى تقديم الفكر العربي للقاريء الأسباني والفكر الأسباني للقاريء العربي ، ويهتم بالتراث نفس اهتمامه بالمعاصرة . وهناك مدرسة للدراسات العربية في كل من مدريد وغرناطة ، وهما اللتان صدرت عنهما مجلة الأندلس الخالدة ، والتي تحمل الآن اسم **القنطرة** .

أقسام اللغة العربية وتاريخ الإسلام المنتشرة في جامعات أسبانيا وهي حوالي عشرة أقسام رئيسية يتولاها أساتذة متخصصون في فرع من فروع اللغة والتاريخ . معهد الدراسات الإفريقية ، ومعهد الدراسات الشرقية وكلاهما يتطرق بالدراسة من حين لآخر لبعض الموضوعات العربية والإسلامية ، وعلاوة على ذلك فإن بعض المؤسسات البلدية والمحلية تصدر دراسات إقليمية عن بعض العواصم الأندلسية القديمة .

وفي أسبانيا صرح ثقافي وعلمي يرجع تاريخه إلى عام ١٩٥١ ، وهو المعهد المصري للدراسات الإسلامية الذي افتتحه الدكتور طه حسين حين كان وزيرًا للمعارف ومازال يواصل رسالته العلمية ويصدر حوليته منذ ذلك الحين .

وليس من المبالغة أن هذه المراكز العلمية والثقافية ، قد لعبت دورًا هامًا في الحركة الثقافية المعاصرة ، وصدر عنها كم هائل من المؤلفات العلمية والثقافية يصعب

حصرها وعرضها ويكفي أن نشير إلى هذا الكتاب القيم الذي نشر بالعربية والأسبانية وهو قطعة حية من تاريخنا الإسلامي ، نود أن تكتمل حلقاتها .ويتم ظهور باقي أجزاء مقتبس ابن حيان الأندلسي .

أبو مروان بن حيان القرطبي :

شيخ مؤرخي الإسلام ، بل هو أعظم مؤرخ أنجبته العصور الوسطى عامة ، كتب التاريخ وهو على وعي كامل بفلسفته ومبادئه ، ويعد مفخرة لأمتنا الإسلامية ، وإن لم نوفه حقه من العناية والتكريم ، وقد يرجع ذلك إلي قلة ما وصلنا من إنتاجه وإلى نزارة ما أفردته كتب التاريخ الحديث عنه .

هو حيان بن خلف بن حسين بن حيان ، ولد في قرطبة سنة ٣٧٧ هـ/ ٩٨٧ ـ ٩٨٨ م ، وتوفى بها في سنة ٤٦٩ هـ الموافقة لسنة ١٠٧٦ م .

تتنوع مؤلفات ابن حيان ، حيث ينسب له كتابات في الشعر والأدب والدين ولكن يجمع كافة من كتبوا عن ابن حيان قديمًا وحديثًا ، أن التاريخ كان صنعته الأولى وفنه الأساسي .

وأشهر كتابين لابن حيان هما «**المقتبس**» و«**المتين**» وفي أولها يتناول **ابن حيان تاريخ الأندلس منذ الفتح العربي لهذه البلاد في عام ٩١ هـ/ ٧١١ م حتى عصر المؤلف تقريبًا** ، ولقد أشار **ابن حزم** إلى هذا الكتاب في رسالته عن فضل الأندلس قائلاً : ومنها كتاب التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس ، تأليف ابن مروان بن حيان ، نحو عشرة أسفار ، أجلّ كتاب ألف في هذا المعنى .

وثانيها «**المتين**» لم تصلنا منه أجزاء مكتملة ، لكن كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة **لابن بسام الشنتريني** ، قد احتفظ بنصوص كثيرة قيمة ، أضحت موضوعًا لرسالة دكتوراه ، قام بها **الباحث المصري الدكتور عبدالله جمال الدين** وقدمها **لجامعة مدريد في عام ١٩٧٨ م** ، ويتناول الكتاب عصر الدولة العامرية والفتنة الكبرى وجزءًا من تاريخ ملوك الطوائف ، أو بصورة أدق ، تسجيلات المؤلف لأحداث عصره وشواهده .

ما نجا من المقتبس :

يتألف هذا الكتاب من عشرة أسفار كبيرة فقدت في معظمها ، ولم تصل إلينا منها إلا بعض القطع ، علاوة على النصوص التي نقلها منه المؤرخون الذين اقتبسوا منه ، والقطع التي وصلت إلينا من المقتبس هي :

قطعة كبيرة في حدود ١٨٨ ورقة تتناول عصر **الأمير الحكم بن مروان (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ/ ٧٩٧ ـ ٨٢١ م)** وشطرًا كبيرًا من إمارة **الأمير عبدالرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٢ هـ/ ٨٢١ ـ ٨٤٦ م)** وكانت في حوزة المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال ، ثم فقدت منه عام **١٩٥٧ م** ، ولم تظهر بعد ذلك . وهناك أخبار مؤكدة عن وجودها بمكتبة **الدكتور عبدالحميد العبادي** التي أضيفت إلى مكتبة كلية الآداب هناك ، وأن أساتذة الجامعة هناك يعملون على نشرها بجامعة الإسكندرية .

قطعة ثانية تتناول السنوات الأخيرة من عصر **عبدالرحمن الأوسط ومعظم عهد ابنه الأمير محمد، وتشتمل على خمس وتسعين ورقة قام بنشرها الدكتور محمود علي مكي في بيروت عام ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧٣ م** .

قطعة تتناول **عصر الأمير عبدالله بن محمد (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ ـ ٩١٢ م)** وتبلغ حوالي مائة وسبع ورقات ، نشرها الراهب الأسباني المستشرق **ميلتشور أنطونيا بباريس ١٩٣٧ م** .

أما أكبر القطع فهي التي نقدمها في هذه العجالة ، فهي تتناول الأعوام الثلاثين الأولى من حكم الخليفة عبدالرحمن الناصر والذي حكم بالأندلس خلال الفترة من **(٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١ م)** ، والكتاب يتناول الأعوام من **٩١٢ إلى ٩٤٢ م** ، وقام بتحقيقها كل من الأساتذة **بدرو شالميتا** ، **وفيدريكو كورنيطي ومحمود صبيح** ، **ونشرها المعهد الأسباني العربي للثقافة سنة ١٩٧٩ م** ثم قام مرة أخرى بنشرها باللغة الأسبانية في عام **١٩٨١** ترجمة الدكتور **فيدريكو كورنيطي والدكتورة ماريا خيسوس فيغيرا** .

وهناك جزء آخر صغير يتناول خمس سنوات من عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله والذي خلف والده على حكم بلاد الأندلس خلال المدة من **(٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ/**

٩٦١ ـ ٩٧٧ م) والقطعة تتناول الأعوام من ٣٦٠ ـ ٣٦٤ هـ/ ٩٧٠ ـ ٩٧٤ م ، قام بنشر نصه العربي في بيروت ١٩٦٥ الدكتور عبدالرحمن علي الحجي ثم نشر ترجمة له بالأسبانية في مدريد ١٩٦٧ م الدكتور اميليو غارثيا غوميث .

السفر الخامس من المقتبس :

تحمل المخطوطة الوحيدة المعروفة لهذا النص في العالم رقم ٨٧ من ترقيم الخزانة الملكية بالرباط وهي مبتورة من بدايتها ، ولا يعرف أحدكم من الصفحات ضاعت منها وحالتها العامة سيئة ، وإن تم ترميمها بقدر الإمكان . ولقد أشار إلى وجودها منذ أعوام طويلة الأستاذ محمد عبدالله عنان ونشر عنها مقالة بمجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية والتي تصدر في مدريد (**العدد ١٣**) ، وكانت هذه المقالة هي التي حملت البشرى بوجودها حيث نوه بحجم المخطوطة وبيان محتوياتها ومسطرتها . ومنذ ذلك الحين والمخطوطة موضع استشارة الباحثين في الأندلسيات واقتبس منها كثيرون نصوصًا قاموا بنشرها في مواضع مختلفة من كتابات التاريخ والأدب الأندلسي ، دون أن ينهض أحد بنشرها كاملة .

والنص عظيم القيمة ، بالغ الأهمية ، حيث يغطي فترة من تاريخ الأندلس تلاحقت فيها الأحداث المثيرة التي تركت آثارها محفورة على جبين التاريخ الأندلسي .

إن دارسي التاريخ **يعلمون** أن عصر الإمارة الأندلسية كان قد تهاوى تمامًا مع نهايات حكم الأمير عبدالله بن محمد، وأن تاريخ الأندلس قد تميز خلال هذه الحقبة بثلاثة عوامل رئيسية هي :

١ ــ الصراع بين أفراد البيت الأموي نفسه .
٢ ــ الصراع بين عناصر المجتمع الأندلسي . وكثرة الثورات ضد مدينة قرطبة .
٣ ــ انتهاز الدول المسيحية في شمال أسبانيا الفرصة لتوسيع رقعتها على حساب الدولة الإسلامية هناك .

وكان على **عبدالرحمن الناصر** ـ حين صعوده العرش ـ أن يتصدى لهذه المشاكل وأن يواجهها بحسم شديد ، ونجح فعلاً ، خلال عشرين عامًا في أن يوحد بين أفراد

الأسرة ، وأن يقضى على جميع الثائرين والمتمردين والخارجين على طاعته وأن يؤدب ممالك الشمال ، ويجعلها تركن إلى الاستكانة ، وأن يرتفع بالأندلس إلى قمة عظمته السياسية والعسكرية .

ويفصل لنا **ابن حيان** ـ في هذا الجزء من المقتبس ـ جهود الناصر في هذه المجالات ، فيتناول كل سنة بأحداثها وما جرى فيها .

وما لدينا من المخطوطة يبدأ بذكر النساء ، حيث يطل بنا على حريم الناصر لنرى تحايلهن على كسب قلب الأمير ، ومن ثم الانفراد بالسيطرة عليه ، وما يترتب على ذلك من تمهيد مستقبل أبنائهن ووصولهم إلى الخلافة ، وفي هذا المجال فإنه يبين لنا كيف تمكنت «**مرجانة**» الرومية من الكيد لزوجته الحرة القريشية ، فاطمة بنت المنذر ابن محمد ، بطريقة لم يسمع بها عقل بشري من قبل ، مستغلة هذر النساء ولعبهن في الوصول إلى هذه المكانة .

ويتعرض الكتاب بعد ذلك لسياسة الناصر مع أولاده ، وكيف أنه أقطعهم بعد ذلك قصورًا وضياعًا ليقيموا فيها بعيدًا عنه ، ولم يستثن منهم إلا الحكم المستنصر ولي عهده ، فأبقاه معه في قصر الإمارة حيث تعهده شخصيًا بالإعداد والتدريب .

الخليفة وابن مسرة :

محمد بن عبدالله بن مسرة ، أحد أوائل الأندلسيين الذين تكلموا في الاعتزال على أرض الأندلس ، ولم يسلم من اضطهاد **الأمير عبدالله جد الناصر** ، ومات في أوائل عهد الناصر ، لكن دعوته ذاعت بعد موته ، وقام تلاميذه بنشرها ، مستغلين فرصة انشغال الناصر بحروب أهل الخلاف حتى كثر القول في شأنه ، فذعر أهل السنة من أهل قرطبة إلى الناصر ، فعمد إلى إصدار بيان إلى الشعب الأندلسي ، يندد بآراء ابن مسرة وأتباعه ويوصي باضطهادهم والتنقير عليهم أينما وجدوا ، وقريء ذلك على الناس بالمسجدين الجامعين بالحضرتين قرطبة والزهراء .

وتتجلى نزاهة التاريخ **عند ابن حيان** حين يتعرض لأعمال الناصر الدينية وشمائله الطيبة ، متبعًا لها ببعض ما يؤخذ عليه من تغليظ العقوبات وتهوينه بالدماء وقسوته على النساء ، واتخاذه الأسود إرهابًا لعذابه ، كما كان يفعل الجبابرة من ملوك الشرق .

ينتقل ابن حيان بعد ذلك إلي ذكر الأحداث على نسق التاريخ في سنى دولة الخليفة الناصر لدين الله عبدالرحمن بن محمد الفسيحة المقارنة للسعادة حيث بدأ بالتصدي للخارجين عليه ، والإنتصار عليهم ، وتعليق رؤوسهم على أبواب القصر ، «وكان أول من وردت رأسه هو محمد بن أرذبلش صاحب مدينة فتح ، حيث علقت على باب السدة ، فكان أول رأس لمارق رفع في هذه السنة ، فتهافتت رؤوس المارقين بعده تهافت الدر انقطع سلكه» .

ولم يكتف الناصر بإرسال قواده للقضاء على المارقين فحسب ، بل نهض بنفسه لمنازلتهم ولم تمض السنة الثالثة من حكمه حتى انفذ الكتب إلى عمال الكور والنواحي المقيمة على طاعته بالاحتشاد والاستعداد للنهوض معه ، فكان أول من استجاب له جند كورة البيرة الذين استمعوا إلى نصيحة قاضيهم بترك الخلاف والاستئناس بعصمة الخلافة وخرج الناصر لأول غزوة ، وتعرف باسم غزاة المتلون ، وكانت أولى الغزوات المؤذنة بسعده ، واستمر في منازلة أعدائه ، واستنزالهم من حصونهم لأكثر من ثلاثة أشهر ويقول ابن عبد ربه في ذلك :

في غزوة مائتا حصن ظفرت بها ... في كل حصن غواة للعناجيج
ما كان ملك سليمان ليدركها ... والمبتنى سد يأجوج ومأجوج

كما قال أيضا :

في نصف شهر تركت الأرض ساكنة ... من بعد ما كان منها الظهر قد ماجا
لما رأوا حومة الشاهين فوقهم ... كانوا بغاثا حواليها ودراجا

ويبدأ الناصر التصدي لأكبر الخارجين وأشدهم خطرًا ، وهو **عمرو بن حفصون** الذي ـ يقال ـ أنه ارتد عن الإسلام ، وتسمى بصموئيل ، وبدأ ثورته ضد قرطبة منذ أواخر عهد **الأمير محمد بن عبدالرحمن** ، واستمر في ثورته طوال عهد **الأمير بن المنذر وعبدالله** ، وفي السنة الثالثة من تسنم الناصر للخلافة افتتح حصن «**شبيلش**» وقتل فيه خمسة وخمسين رجلاً من أصحاب **عمرو بن حفصون** ، وتابع الناصر التضييق على عمرو بن حفصون ورجاله ، حتى توفى عمرو ، واستسلم أبناؤه من بعده بعد كثير من المفارقات والضروب إلى أن تمكن الناصر من حصن ببشتر معقل الثائر ، وسجد لله شكرًا على تمكنه من هذا المعقل الحصين .

ابن حيّان
المقتبس
(الجزء الخامس)
نشره ا . ب . شالميتا
ف . كورينتي
م . صبح
المعهد الاسباني العربي للثقافة – مدريد
كلية الآداب بالرباط

العلاف الخاص بالنسخة العربية

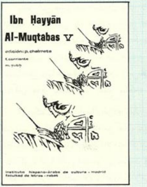
Ibn Ḥayyān
Al-Muqtabas V
edición: p. chalmeta
f. corriente
m. ṣubḥ
instituto hispano-árabe de cultura - madrid
facultad de letras - rabat

نفس الغلاف باللغة الأسبانية

ويفصل ابن حيان كيفية إعادة مدينة أشبيلية إلى أمر الجماعة وحصن الطاعة وشجاعة الناصر في هذا المجال ، وكيفية القضاء على تمرد آل إبراهيم من حجاج المالكين في هذه المدينة ، ومن أشبيلية بادرت قوات الناصر بالتجول في كور الأندلس تستعيدها إلى حصن الجماعة ، وتنزل العصاة من معاقلهم .

كفاح الناصر للنصارى :

ولم يقتصر كفاح الناصر على المدن الإسلامية الخارجة على طاعته وإمرة العاصمة قرطبة فحسب ، وإنما وجه همته أيضًا منذ بداية حكمه إلى الممالك الأسبانية الشمالية وهي الممالك التي كانت انتهزت فرصة التمزق الذي أصاب الدولة الإسلامية ، لكي تلم شملها وتوسع من رقعتها ، وتتمادى في انتصاراتها على ما جاورها من الأقاليم الإسلامية ، حيث قام **الملك «أردون بن أذفونش»** ملك الجلالقة باجتياح مدينة يابرة من بلاد غربي الأندلس ، وقتل أهلها ، واستحل نساءهم وذراريهم حيث لم ينج منهم إلا عشرة رجال فقط ، ويصف ابن حيان شناعة المأساة حين يصور لنا منظر القتلى نساءً ورجالاً فيقول : **ولقد كان الداخل إليها بعد خروج العدو بمدة .**

يدخل إليها فيأتي ذلك المأزق الذي ضم إليه المسلمون عند الإحاطة بهم ولم يجدوا عنه منفذًا . فينظر إلى عقرى جاثمين قد ركب بعضهم الرجال والنساء ، قد همدت جثثهم سافا بعد ساف في سمك قامة وقامتين صعد إلى حائط السور ، فيرى منظرًا موحشًا شنيعًا ، وهولاً هائلاً فظيعًا .

ولم يكتف ملك الجلالقة بما أحدثه في مدينة يابرة ، بل إن ذلك أطمعه فعاد مرة أخرى ليضرب في بلاد المسلمين ، ويهاجم بلادهم ، يحرق ويدمر ، ولا يخشى للمسلمين بأسا ، حتى اضطر المسلمون إلى مهادنته ومهاداته .

مضت أربع سنوات من حكم الناصر ، عاث فيها الجلالقة ببلاد المسلمين ، وحسبوا أن صغر سن الناصر ، عامل من عوامل استصغار شأنه والتقليل منه ، وما لبث الناصر أن أرسل جيوشه وقواده لمهاجمة بلاد المشركين «فوطىء العسكر أطراف المشركين ، وروع قلوبهم على طول عهد بالأمنة ، وجال في نواحيهم وأداخ بلادهم» .

وتواصلت بعوث الناصر وجيوشه إلى شمال أسبانيا لتحد من شوكة الدويلات المسيحية القائمة هناك ، ثم خرج بنفسه على رأس جيوشه محققًا انتصارات مدوية مدمرًا حصونهم ، ومحطمًا لمعاقلهم .

ويفصل **ابن حيان** جميع غزوات الناصر ، سواء المحلية أو الخارجية ، تفصيلاً كبيرًا ، يتناولها عامًا بعد عام ، معرجا على النظم الإدارية والسياسية وأسماء القادة والوزراء ، وعلاقات الناصر ببلاد المغرب وقبائله ورجاله وحكامه .

ولا ينسى ابن حيان الإشارة إلى الروايات التاريخية المعينة التي ينقل منها ، فيشير إلى عريب بن سعيد ، وإلى صاعد الطبِّي ، وإسحق ابن مسلمة ، والرازي وغيرهم .

التلقب بالخلافة :

في سنة ٣١٦ هـ/ ٩٤٨ م وجد الناصر أنه ارتقى إلى مكانة عالية ، وحقق الكثير من الانتصارات ، في الوقت الذي كان خلفاء بني العباس أُلعوبة في أيدي مواليهم من الأتراك ، ومن هنا سمت نفسه إلى التلقب بإمرة المؤمنين ، وعدم الاكتفاء

بالألقاب التي كان يستعملها آباؤه وأجداده في الأندلس . فرأى أن **يستكمل** «مرتبة الخلافة» . واستتم ميسمها بتسميته أمير المؤمنين وأخذه رعيته بذلك في جميع مايجرى منه ذكره . وإنفاذ كتبه بها في أقطار مملكته . وقطعه على استحقاقه لهذا الاسم . الذي هو بالحقيقة له . ولغيره بالاستعاره . وأصدر الناصر مرسومًا لعماله ونوابه لكي يكاتبوه وينادوه بإمرة المؤمنين . وبدأ بذلك عصر الخلافة في الأندلس الذي ظل قائمًا حتى سقوط الدولة الأموية .

وينتقل **ابن حيان** إلى الحديث عن مدينة الزهراء . إلى وصول أبي علي القالي إلى الأحداث الجمة التي تواكبت بين الناصر . وملوك النصارى . والتي انتهت بأن أصبح الناصر لدين الله . سيد شبه الجزيرة الأيبيرية دون منازع . يهابه الملوك وتهاديه السلاطين . وتصله رسل القسطنطينية .

وتتوقف المخطوطة التي بين أيدينا . عند سنة ثلاثين وثلاث مائة . وفي هذه السنة يحدثنا ابن حيان عن كيفية استعادة الناصر لمصحفه الذي فقده في الهزيمة الوحيدة التي لقيها في حياته أمام جلالقة الشمال الأسبان ، عن صلاة الاستسقاء ، عن رصف الرصيف إلى مدينة الزهراء . عن رؤية هلال رمضان . عن الوزراء والعمال .. إلخ .

ولقد قدم المحققون للدارسين في التاريخ الإسلامي خدمة جليلة بجسارتهم على طبع النص وجعله سهلاً مقروءًا وتركوا لمهمة أخرى قضية التحقيق العلمي للأسماء والأماكن وإن كانوا قد ألحقوا بالكتاب فهرسًا لأسماء الأعلام والأمم والقبائل وفهرسًا بأسماء البلدان والأماكن والأنهار .

ولقد قام كل من الأستاذ الدكتور فيدريكوكورنيطس ، رئيس قسم اللغة العربية بسرقسطة . والأستاذة الدكتورة ماريا خيسوس فبغيرا بترجمة النص إلى الأسبانية . ونشره بمدينة سرقسطة في نهايات عام ١٩٨١ م .